مكان تحده الظلال

أمينة سيفجي أوزدمار

ترجمة: هبة شريف

مقدمة

استيقظت فجأة. أصوات من خلف الحائط كأنما تحاول إحدى الشاحنات مرارًا وتكرارًا اختراقه. حيوانات تركض في العلية، وفي المنزل المجاور تنقر الحيوانات الحائط بأقدامها. يبكي أحدهم، غالبًا هذه المرأة العمياء التي تقف تقريبًا كل يوم في الرابعة صباحًا أمام باب منزلها المفتوح وتستمع لصوت الرياح. تبدو في هذه اللحظة كأنها قادرة على الرؤية. يضاء كل ليلة مصباح في غرفتها، تجلس على فراشها، وتنام أحيانًا وهي في وضع الجلوس، بعينين مفتوحتين، وتبدو هنا أيضًا، عندما تنام بهذا الشكل، كأنها قادرة على الرؤية. تستعيد قدرتها على الرؤية عندما تحلم لأنها لم تفقد بصرها إلا في سن الثانية عشرة. لم تفقد الصور التي رأتها لمدة اثنتي عشر سنة البصر معها، لقد انتقلت فقط من مكانها في تلك الشوارع والحجرات، التي تحولت إلى فراغ مظلم، إلى أحلام المرأة العمياء. ظهرت الأصوات من جديد كأنما تقف شاحنة خلف الحائط وتحاول التقدم مرارًا وتكرارًا لتخترقه. يتساقط التراب بعد كل صوت وتتساقط فروع شجر دقيقة ومتعفنة من سقف الحجرة القديم الذي بليت فيه العوارض الخشبية وتباعدت عن بعضها بعضًا..

هبطتُ متجهة إلى المطبخ.

مازال ضوء النهار في الخارج متمسكًا بالليل، تخلل النافذة عبر الطاولة واستقر فوق المقاعد ونشر ظله الحزين ففصل المطبخ عن هذا العالم، هكذا وهب هذا المكان من جديد إلى الأموات الذين سكنوا هنا يومًا ما.

تساقطت الآن الأحجار الصغيرة والرمال من المدخنة أيضًا لتصطدم بغطاء الوعاء القصدير وتقفز بعد ذلك في كل اتجاه في المطبخ مصدرة أصواتًا ميكانيكية. بدأ بعض الحمام في أعلى المدخنة في الهديل وربما بدأ أيضًا في ضرب جدران المدخنة الضيقة بأجنحته.

انتشر الآن الضوء الحزين وانتقل من المقاعد إلى الأرض وامتد فوق الرمال المتساقطة من المدخنة والتي انتشرت في المطبخ في كل الاتجاهات، كما امتد فوق الأحجار الصغيرة، من أجل أن يرى من جديد أيدي الأموات الذين بنوا يومًا ما هذه المدخنة، يراها في تلك الساعة بين الليل والنهار التي لا تزال فيها الجزيرة نائمة، فقط المرأة العمياء هي من استيقظت لتقف أمام باب منزلها المفتوح وأخذت تستمع إلى الرياح.

سرتُ في اتجاه باب المنزل حيث الأصوات، وكأنما تحاول شاحنة مرارًا وتكرارًا اختراق الحائط. فتحت الباب، الزقاق الضيق الذي لا يتسع حتى لسيارة واحدة، كان خاليًا، فقط بعض

الأحجار الثقيلة كانت تسقط من الجدار المنخفض المهدم في الجهة المقابلة. وهناك وقف حمار وحول رقبته حبل قيده إلى الشجرة الوحيدة في تلك الحديقة التي توحشت فيها النباتات. أراد الحمار تحرير نفسه من الحبل، فكان يجري مرارًا وتكرارًا إلى الأمام بقدر ما يسمح له الحبل ويضرب بجسمه كله وحوافره الجدار المنخفض. وخلف الحمار كانت أطلال كنيسة يونانية صغيرة وتظهر من خلفها الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية.

في اللحظة التي رفعتُ فيها رأسي عاليًا لأنظر إلى الكنيسة الأرثوذكسية، أدار الحمار أيضًا رأسه إلى الخلف في اتجاه الكنيسة ووقف في هدوء. هل قصت الكنيسة شيئًا ما على الحمار في أثناء ما كنت نائمة، أو هل تحدثت الكنيسة مع نفسها وسمع الحمار ما قالته؟ هل كانت الكنيسة الأرثوذكسية تتحدث دائمًا مع نفسها، أو هل تحدثت فقط في هذه الليلة مع الحمار، بعد أن هجر الإنسان كليهما، وكلاهما مقيد إلى مكان لا يستطيعان التحرك منه. اختفت منذ ساعات كل أقدام البشر الذين يسيرون في هذه الأزقة هبوطًا إلى الميناء ثم صعودًا من جديد إلى بيوتهم. هذه الأقدام موجودة الآن في شكل أحذية خلف أبواب البيوت، وعليها أن تنتظر طلوع الصباح. وبعد ساعة من الآن، سيقوم الصيادون الذين سيبحرون فيما بعد بتوجيه هذه الأحذية في اتجاه باب الخروج من جديد ليرتدوها، وسيشعر بعض زوجات الصيادين بالغربة وهن يغادرن فراشهن في ملابس النوم ليشاهدن أزواجهن وهم يغادرون المنزل. سيبدأ هؤلاء الرجال في السير بخطوات متعجلة في اتجاه الميناء مخترقين الأزقة الحجرية الضيقة المظلمة والمنحدرة. سوف يطرق بعضهم في أثناء سيره، وبدون أن يتوقف، بعض النوافذ: «مهمت، مهمت، استيقظ، الساعة الخامسة الآن – Kayik kaldiyor، سيبحر القارب.» سيبقى الماء الذي غسلوا به وجههم في عجالة في البداية عالقًا وسط أخاديد وجوههم ولن يسقط على الأرض إلا بعد أن يقطعوا نصف المسافة حتى الميناء.

سوف يصمت هؤلاء الصيادون عندما يبحرون في قواربهم الصغيرة، فالليل لم ينقض بعد. لكن صوت موتور قواربهم سيعلو شيئًا فشيئًا، لم يصمم هذا الموتور في الأساس للقوارب، وإنما للاستخدام في ري الحقول، سيعلو صوت الموتور حتى تبدأ أرضية القارب كلها في الاهتزاز، وسيشعر بعض الصيادين بالحكة في أنوفهم بسبب هذا الاهتزاز.

تاكتاكتاكتاكتاكتاكتاكتاكتاكتاكتاكتاك. ستمزق هذه الأصوات الليل إلى قطع صغيرة كأنها سكين ضخمة بحجم السماء. تبدأ قطع الليل في السقوط في البحر، وفي تلك اللحظة ستظهر آلاف الغربان وتقف فوق أسطح البيوت أو فوق عواميد التلغراف في الجزيرة وتبدأ النعيق الجماعي حتى يشرع الإمام في الجامع البعيد في تلاوة صلاة الفجر. تُبت مكبران للصوت فوق قبة الكنيسة الأرثوذكسية. ومن هذه القبة، سيدخل صوت الإمام إلى البيوت متخللًا

النوافذ المغلقة، فتبدأ الحركة داخل الحجرات. سيمسك الصوت بالمناشف النائمة المعلقة في الظلام، وسيدير مكابس الضوء ليفتحها ويغلقها، وسيبعثر ملاءات الأسرة وسيجعل كل الكلاب تنبح بعيون نصف مغلقة. سيبدأ الديك في البيت المجاور بعد ذلك في الصياح، كيكيريكي. ثم تهدأ كل الأصوات حتى يفرش الضوء الذي تلاحقه الظلال نوره أولاً فوق الأشجار. وفي تلك اللحظة ستسقط بعض ثمار الخوخ من الشجرة على الأرض.

لكن مازال هناك متسع من الوقت.

أصبحنا الآن وحدنا، أنا والحمار والكنيسة الأرثوذكسية والمرأة العمياء التي تقف أمام باب منزلها المفتوح. والليل فوقنا وقد أخرج من أكثر الأركان ظلمة بعضًا من ذكرياته ووزع هذا البعض في الهواء بيني وبين الكنيسة الأرثوذكسية والحمار والمرأة العمياء.

الكنيسة الأرثوذكسية تتكلم

جزيرة

كانت كل البيوت فوق تلك الجزيرة مرتبطة ببعضها البعض بصلة قرابة. الناس أيضًا كانوا يشبهون بعضهم بعضًا حتى أنك قد تتصور أنهم يملكون أقنعة متشابهة يخلعونها خلف أبواب بيوتهم ويرتدونها قبل أن يخرجوا منها، حتى أياديهم كانت تبدو وكأنما ترتدي أقنعة بدورها، أقنعة للأيدي. بعض هؤلاء الناس يعمل بالصيد والبعض الآخر يعمل في جمع الزيتون.

تقع تلك الجزيرة التركية في مواجهة جزيرة لسبوس اليونانية. كان لدى ناس الجزيرة ثلاث رياح: رياح "إمبات" ورياح "پويراز" ورياح "لودوس". ولديهم أيضًا رياح "يلديز" التي لا تمر بهذه الجزيرة كثيرًا. لكن تمر رياح "إمبات" في المقابل كثيرًا جدًا، إنها تهب من الجهة المقابلة، من جهة لسبوس وتغطي أولًا بيوت لسبوس بالضباب والبخار، ثم تأتي إلى هنا فوق ظهر الخيل عبر بحر إيجه الذي يربط بين الجزيرتين، فتعصف بكل الملابس المنشورة في الشرفات أو في الحدائق، وتظل تضرب ملاءات الأسرة والبنطلونات والسراويل الداخلية وأكياس الوسادات والتنورات الداخلية والجوارب النايلون، فلابفلابفلاب. تكنس رياح "إمبات" كل شيء إلى الخلف، تكنس شعر الصيادين، شعر زوجات الصيادين، شعر الأطفال، شعر الخيل، آذان الحمير. تطير الأوراق الملقية فوق أحجار الأزقة إلى الخلف وترتفع صاعدة الأزقة. تجعل رياح "إمبات" ملابس النساء تلتصق بأجسادهن وتبرز صدورهن وبطونهن وأفخاذهن وتجويف أفخاذهن. في السابق، في زمن الإمبراطورية العثمانية، كانت الأمهات تذهب إلى الحمامات التركية من أجل أن تبحث لأبنائهن عن عروس ذات بنيان متين. كان الحمام التركي عرضًا للبنات من أجل الزواج. هذا ما تفعله رياح "إمبات" أيضًا.

في بعض الأيام التي تتوقف فيها رياح "إمبات" وتحل محلها رياح "پويراز"، يحدث العكس. فرياح "پويراز" تهب من الجبال وتكنس كل شيء إلى الأمام في اتجاه البحر. يطير شعر الصيادين من الخلف إلى الأمام، وتلتصق ملابس نساء الصيادين بأجسادهن من الخلف، فتبدو مؤخراتهن وسيقانهن للعيان في الأزقة كأنما نحتهم نحات. هكذا تحول كل من رياح "إمبات" و"پويراز" الجزيرة فورًا إلى صالون اللوفر الذي يمكن أن تتأمل فيه منحوتات فينوس مرة من الأمام ومرة أخرى من الخلف. تهب رياح "پويراز" من جبال كاز التركية في اتجاه جزيرة لسبوس، ولكنها لا تكسو بيوت الجزيرة بالضباب والبخار كما تفعل رياح "إمبات"، بل تجعل كل بيت من البيوت هناك واضحًا حتى عن بعد.

أما ثالث أهم الرياح، رياح "لودوس"، فهي رياح دافئة، وتضرب، عندما تهب، أولًا كل شخص في الجزيرة في وجهه. في تلك الأيام التي تهب فيها رياح "لودوس" يسير الرجال والنساء

والأطفال والحمير والمعيز وهم ينظرون في قلق إلى الأرض، كأنهم شخصيات الأقزام في مسرحية "بير جينت"، يسيرون بخطوات بطيئة في الأزقة الضيقة المنحدرة أو يمرون بالميناء كأنهم شخصيات تظهر في فيلم بالتصوير البطيء. حتى الذباب يطير ببطء ولا يصدر طنينه المعتاد: ڤززززززززڤززززز، يطن الذباب في تلك الأيام بصوت مختلف: ڤي ڤي ڤي. يبدو شكل البحر في أثناء هبوب رياح "لودوس" مثل سماء فقدت وعيها وسقطت فوق الأرض. يبدو زجاج نوافذ البيوت كأنه يتمدد بفعل الحرارة ويتنفس بصعوبة وعلى وشك الانفجار. حكى أحد الصيادين الكبار في السن أن زجاج كل النوافذ هنا على هذه الجزيرة التركية قد انفجر عندما قصف هتلر لسبوس بالقنابل، فتناثرت قطع الزجاج فوق أرض الأزقة المشمس، وغشيت عيون الناس كأن الزجاج سكاكين مسنونة، هرب اليونانيون آنذاك من هتلر على متن القوارب وجاءوا إلى هنا.

تعتقد رياح "إمبات" و"لودوس" و"پويراز" أنها هي من تسكن هذه الجزير وليس الناس، هكذا تفكر الحيوانات أيضًا. دعنا الآن من طيور النورس العديدة التي تعيش فوق الجزر الخمس وعشرين غير المأهولة حول هذه الجزيرة والتي تعلم أطفالها من النوارس الطيران كلما حلا لها ذلك، فتشجعهم بإطلاق الأصوات القوية سويًا كجوقة من طيور النورس البالغة. تبدو أصواتهم في ذلك الوقت مثل ضحك متواصل. تدفع هذه الجوقة لساعات طوال صغار النوارس من الصخور إلى السماء، ثم من السماء إلى أسفل. دعنا منها الآن ولنتركها تحتل الصخور المنخفضة أو العالية التي تستخدم كل أحجارها مرحاضًا لها ثم تطير بعد ذلك عاليًا في السماء في مجموعات وتنتظر هناك في شكل ذيل تنين ضخم حتى ينتهي الصيادون من إلقاء الأسماك التي لا تصلح للبيع من شباكهم في البحر. تسبح تلك الأسماك الصغيرة نصف الميتة في البحر فتصيح طيور النورس قبل أن تخطفها من البحر بمناقير تفتح وتغلق سريعًا وتصعد بها إلى السماء. تصيح تلك النوارس من جديد مثل الجوقة بدون أن تتكسر السماء إلى قطع صغيرة بفعل صوتها العالي. هذا أمر لا يقدر عليه سوى النوارس. تصيح النوارس لتدعو الطيور الأخرى في الخمس وعشرين جزيرة غير المأهولة إلى الطعام. لكن دعنا من النوارس التي تعيش فوق جزرها الخمس وعشرين غير المأهولة حتى الآن، ونتركها تأكل وتتبرز وتعلم أطفالها الطيران. فهنا، فوق تلك الجزيرة المأهولة بالناس، يمكن أن نقول أن القطط وصراصير الليل بالإضافة إلى رياح "إمبات" و"پويراز" و"لودوس" هم من يحتلون كل الأشجار والحدائق وأسطح البيوت والأزقة زيزيزيزيزيزيزيزيزيزيزيزيزيزي.

عندما تسير زوجات الصيادين هابطة الأزقة المنحدرة في اتجاه الميناء وقد ارتدين ملابس تشعرهن بالغربة، كن يسمعن فوق رؤوسهن أصوات الزيزيزيزيزي المنطلقة من صراصير

الليل، ويسمعن من بين أقدامهن أصوات المياو مياو مياو مياو. وعندما تشعر النساء أنه لم يعد بوسعهن الاستماع إلى تلك الأصوات التي تحتل الأشجار والأرض، كن يهددن صراصير الليل وقد مددن رؤوسهن إلى أعلى صائحات: «كفى، كفى، اسكتوا، موتوا – sus yeter geber»، وكن يهددن القطط برؤوس منكسة بأنهن سوف ينفوهن إلى واحدة من تلك الجزر الخمس وعشرين غير المأهولة.

سوف أنفيك إلى الجزيرة العارية.

سأنفيك إلى جزيرة ملينا.

سأنفيك إلى جزيرة التين.

كانت بجزيرة التين، وهي واحدة من الخمس وعشرين جزيرة غير المأهولة، أربع شجرات تين تنمو على فروعها ثمار التين طيبة المذاق للغاية. لكن قام أحد الصيادين منذ ست سنوات بقطع أشجار التين الأربعة حتى يستعمل خشبها للتدفئة في الشتاء، فظل جميع الصيادين الآخرين يلعنون منذ ست سنوات هذا الرجل الذي قطع الأخشاب لأنهم فقدوا ظل شجرة كانوا يتوقفون تحتها عندما يرمون شباكهم حول جزيرة التين وينتظرون وهم يدخنون. كان الصيادون يحبون الشجرة، فهم متواجدون دائمًا فوق قوارب متأرجحة، وعندما يرفعون رؤوسهم إلى أعلى يرون سماء تتحرك كما يتحرك الماء تحتهم، فالسحب تتحرك في السماء دائمًا في اتجاه ما، تبدو في البداية مثل أحد الحيوانات، ثم تذوب مثل القطن لتبدو مثل ممرات في السماء، ومن تلك الممرات تنطلق فجأة طيور النورس موجهة إلى شباك الصيادين. تُوزع الشتائم على طيور النورس، لكن النوارس تخطف الأسماك من الشباك وترتفع بها إلى السماء، فتسقط شتائم الصيادين في الماء. كان للصيادين دائمًا حكايات عن النوارس وأعطوها اسمًا نسائيًا: عزيزة Aziza geldi, Aziza geldi, Aziza gitti.» سحبت الشبكة من الماء، وماذا رأيت فور أن فعلت ذلك؟ إنها "عزيزة" التي جاءت مسرعة.»

لم يكن لزوجات الصيادين حكايات عن عزيزة يسردنها، لم يلعن عزيزة أبدًا، فلم تقع أنظارهن عليها تقريبًا أبدًا. كان لديهن في المقابل المعيز أو الخيل والقطط.

السيدة "عيشة" على سبيل المثال التي تسكن بأعلى الهضبة في الجزيرة. قالت السيدة "عيشة": توقفت عن الهبوط إلى الميناء منذ ثلاثين عامًا. كانت "عيشة" في ذلك الوقت متزوجة حديثًا وجاءت إلى هنا من إحدى قرى الجبال. أراد زوجها يومًا أن يخرج معها، فاصطحبها إلى الميناء وشربا هناك الشاي في أحد المقاهي. كان للزوج حصان يحتفظ به في المنزل بأعلى الهضبة، فقال لـ"عيشة": «انتظري هنا، سوف أذهب إلى المطعم وأحضر بعض الخبز القديم من أجل الحصان.»

انتظرت "عيشة" بضعة ساعات، ثم قررت أن تصعد وحدها الزقاق الضيق إلى الهضبة لتعود إلى المنزل، لكنها لم تعثر عليه بسرعة لأن البيوت كلها متشابهة. وعندما عثرت عليه في النهاية، وجدت زوجها هناك يطعم الحصان ويتحدث معه. أقسمت منذ ذلك الحين ألا تذهب أبدًا إلى الميناء. وقالت: «فلتذهب أنت وحصانك إلى الميناء لتناول الشاي.» ولم تحنث بقسمها أبدًا منذ ثلاثين عامًا، وظلت منذ ذلك الوقت تلعن الحصان.

إحدى جاراتها التي لم تتزوج أبدًا، كانت لها أخت، التي كانت مثلهًا أيضًا، غير متزوجة. كانت الأخت تثقب آذان القطط وتعلق فيها حلقانًا من الخيوط الفضية. كانت تفعل ذلك عندما كانت إناث القطط تصرخ لتجذب الذكور. كانت تغطي مخالبهم بقشور الجوز. وكان على القطط ارتداء هذه القشور عندما يدخلون إلى المنزل.

زوجة أخرى من زوجات الصيادين كان لديها في بيتها ماعز، وكانت الماعز لا تسمح لها بالاقتراب منها لأنها وقعت في حب زوجها، هذا ما كانت تقوله الزوجة. وعندما كان الزوج يقترب من الماعز كانت تلعق يده، أما إذا كانت زوجته معه، فكانت تركل الزوجة وتلف ساقيها الأماميتين حول كتفي الزوج لتعانقه. هربت زوجة ثالثة من زوجات الصيادين مع أحد الرعاة وقطيع الماعز الذي يرعاه. فسرق زوجها من القطيع جديًا وخبأه، جن جنون الراعي: «أين الجدي؟» فقد حدث ذلك في الخريف، أي في موسم التزاوج. فقال الزوج للراعي: «أعد لي زوجتي وسأعطيك الجدي.» وبعد ثلاثة أسابيع تبادل الراعي والزوج المرأة والجدي.

لدى الجميع حكايات عن الحيوانات. لا يعرف أحد إذا كانت صحيحة. لا يتحدث الرجال عن زوجاتهم، لكنهم يتحدثون عن "عزيزة"، ولا تتحدث النساء عن أزواجهن، لكنهن يتحدثن عن الماعز والخيل.

يمكنك أن تسمع أصوات الجيران حتى الساعة التاسعة مساء. كما تسمع بين أصواتهم القطط والخراف والطيور وهي تتكلم أيضًا. وعندما يتحدث اثنان من الجيران المسنين مع بعضهما البعض، يبدو وكأن الحديث يدور بين اثنين من الببغاوات، فهما يتحدثان بلغة نصف كلماتها يونانية ونصفها الآخر تركية. «Ela bre Hasn. Kala bre pedakimu.» يرتدي الناس هنا في الساعة التاسعة مساء أفضل ملابسهم، يذهب كل من "إيلا هاسان" و"إيلا سيڤيم" إلى المقاهي عند الميناء. تتوقف أصوات الناس في البيوت منذ الساعة التاسعة مساء. تسمع فقط الحيوانات وهي تنقر بأقدامها على الحائط. تمر كل الأقدام التي تذهب إلى الميناء بالضرورة بالكنيسة الأرثوذكسية.

مر وقت طويل منذ أن سرت لأول مرة من الميناء إلى الكنيسة الأرثوذكسية. كان المطر الشديد قد توقف وبدت السماء مترددة: هل عليها أن تكشف عن القمر أو تخبئه مع النجوم عن عيون العالم؟ كان الطريق إلى الكنيسة مظلمًا، بعض المصابيح في الشارع كانت تضيء بنور ضعيف، وبعضها الآخر لم يكن يضيء من الأساس. دفع الهواء الستائر التي أسدل جزء منها إلى داخل البيوت ثم أخرجها من جديد إلى الشارع فكشف لي عن الحجرات المحجوبة. في إحدى الحجرات وقفت سيدة عجوز قصيرة القامة بلا حراك وكانت تمسك بمنشفة في يدها. وفي المنزل المجاور جلس رجل في منامته على مقعد بمسندين، ثم جاء طفل صغير وجلس إلى جواره. وفي البيت المجاور لهذا البيت كانت الحجرة مضيئة، لكن لم يكن فيها أحد. رأيت فيها صورة كبيرة ذات إطار معلقة على الحائط وبها رجل وامرأة. أحيانًا كان الناس يسيرون أزواجًا صاعدين الطريق الحجري المؤدي للهضبة، أو يسير رجل مع زوجته هابطين الطريق إلى الميناء. كل أجسادهم، كل أقدامهم، كل شعورهم كانت تعرف الطرق التي يسيرون فيها جيدًا. كانت تلك الأزقة هي نفسها التي ساروا فيها في طفولتهم صاعدين وهابطين: هابطين إلى الميناء، ثم صاعدين إلى بيوتهم.

«ماما، لقد أتيت.»

«اذهب يا بني لشراء الملح. ولا تنسى الكيروسين.»

«ماما، لقد فقدت النقود. كنت أمسكها بيدي، لكن رياح "پويراز" خطفتها مني.»

«سيأتي أبوك ويعاقب الرياح.»

«ماما، اريد أن أموت قبلك.»

«ماذا تقولين يا بنيتي؟»

«نعم، أنا أحبك كثيرًا، ولا أستطيع الحياة بدونك، اسمحي لي أن أموت قبلك.»

«وماذا عني يا ابنتي؟»

«ماما، رأيت ثعبانًا أبيض في الحديقة.»

«الثعابين لا تأتي إلى هنا. لابد أنك رأيت شيئًا آخر.»

«ماما، أقسم أنه كان ثعبانًا، فليعميني الله إن كنت أكذب.»